

تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

المترجم الانجليزي

المدخل لتاريخ العرب

- ٢ -

أخرى أمر اعتبار لهجة مكة (التي نزل بها القرآن) الأصل للعربية ، وتسمية العربية « لغة قريش » كافي لدحض كل حقيقة حول هذا الموضوع . وقد أخذ محمد (ص) - كما لاحظنا ذلك - الشعر القديم مثلاً . وفي صدر الاسلام كانت سلطة الشعراء الجاهليين (وقليل منهم كان من قريش) هي التي ثبتت قدم اللغة الفصحى وعممت استعمال الأسلوب الفصيح . وطبيعي أن يكون المسلمون - وهم الذين عدوا القرآن كلمة الله والجزء الباقية في أسلوبها - قد قدموا لهجة قبيلة النبي على كل لهجة أخرى ، كما أنكروا القول بأن كل قبيلة أبعد من مكة أقل فصاحة ، ولكن هذه النظرة لا تاتي قبولاً لدى الباحث الحامد . ولو أنه كان للقرآن تأثير عظيم في تاريخ اللغة العربية وآدابها ، وسنرى في فصل خاص أن ضرورة حفظ أصل الكتاب الكريم سليماً ، وشرح غوامضه بمثل المسلمين على استنباط علم النحو واللغة ، ودعت إلى جمع شعر الجاهلية والأخبار التي لا بد قد تطرق إليها الضياع . ولما استقر العرب - كفاهمين - في سورية وفارس واختلطوا بالشعوب الغربية عنهم ، لم تلبث لغتهم محافظة على فصاحتها الأولى ، أما في بلاد العرب نفسها وخاصة بين بدو الصحراء فلم يكن الفارق محسوساً ، وكذلك في البلدان المجاورة ومراكز التجارة الكبرى كالبصرة والكوفة حيث كان معظم السكان من الأجانب الذين اعتنقوا الاسلام وسرعان ما استمروا ؛ وظل الباب مفتوحاً على مصراعيه لجميع ضروب الفساد . وقد أعلن علماء اللغة حرباً ضروساً على هذه الريسة التي شابتها العجمة ، وإن الفضل في انتصار العربية الفصحى وتعالها على الأخطار الجسام التي تهددها يرجع إلى ما بذله هؤلاء من جهود ، وبالرغم من أن لغة البدو الوثنيين لم تبق كما هي - أو ظلت على أي حال حية على السنة المتحذلقين والشعراء فحسب - إلا أنها أصبحت بعد تحوير قليل الوسيط العالي للحديث بين الطبقات العليا في المجتمع الاسلامي ، وفي مسهل العصور الوسطى كانت لغة الحديث والكتابة لجميع مثقفي المسلمين من أي جنسية كانوا : من بلاد الهند حتى المحيط الأطلسي ، فكانت لغة البلاط والدين ، ولغة الشرع والتجارة ، ولغة السياسة والأدب والدم ، وفي القرن العاشر حينما مثل الغزو المغولي عرش الخلافة العباسية وانفردت عقد الوحدة الاسلامية السياسية لم تعد العربية Koive أو اللغة العامة للعالم المحمدي ، بل حلت مكانها لهجة سوقية في

وإذا وجدنا أن اللغة لا تجرى فحسب على السنة الشعراء الجوالين (الذين كانوا عادة على جانب من الثقافة) أو عرب الحيرة المسيحيين ، بل تتداولها ألسن الرعاة والاصوص والبدو الغلاظ في كل البقاع ، إذا وجدنا هذا فليس تمت داع للشك في أننا نسمع من خلال شعر القرن السادس اللغة العربية التي كانت مستعملة في طول بلاد العرب وعرضها . وقد زاد انتصار محمد والفتوح الاسلامية في عهد الخلفاء الراشدين من شأن هذه اللغة وأصبحت العربية لساناً مقدساً في جميع الأمصار الاسلامية . ولا مرء أن الفضل في هذا يرجع إلى القرآن ، ولكن من ناحية

خذنا حذراً يا جارتى فانتى رأيت جران العود قد كاد يصلح
خوفهما بغير قد من صدر جمل من
ومن ذلك أن المرقش الأكبر لقب بهذا لقوله :
الدار قفر والرسم كما رقت في ظهر الأديم قلم
واسم المرقش ربيعة بن سعد بن ملك
ومن ذلك أن مدرج الريح لقب بهذا لقوله :
ولها بأعلى الجزع رسم دارس درجت عليه الريح بمدك فاستوى
فاذا نظرنا إلى هذه الأخبار المتناقضة في ذاتها لم تشف غليلنا
في هذه النبوة الزعومة ؛ وليس أماناً فيها إلا اللجوء إلى ما سموه
علم الجرح والتعديل ، وإني لا أتق كثيراً بهذا العلم ، لأنه
مختلف أيضاً في أمر رواة الأخبار ، ولأنه يعتمد على ظاهر
أمرهم وهو لا يدل حقيقة عليهم
فلا بد من اللجوء إلى أمر آخر يشفي غليلنا في أمر هذه
النبوة ، وذلك الأمر هو الشعر الذي قيل في العهد الذي يقال
إن النبي ادعى فيه هذه الدعوى ، وسنبداً بهذا في المقال الآتي
(تجمع)
عبد المتعال الصغير

الذي اعترف بأنه ترجمه من الكلدانية ، فقد ظهر الآن أنه مختلق ، وما أشرت إليه في هذا المجال إلا كثنال لاوسيلة التي يستعمل فيها المسلمون لفظ « نبطي » ، لأن العنوان المشار إليه حالاً لا يرجع بالطبع إلى بئرا ولكن إلى بابل

من كل ما قيل يستطیع القارى أن يلاحظ أن تاريخ العرب — وجل معلوماتنا عنه مقتبسة من مصادر عربية — يمكن تقسيمه إلى ثلاثة عصور

- (١) العصر السبأى والحيرى من ٨٠٠ ق. م وهو تاريخ أقدم نقوش العربية الجنوبية حتى سنة ٥٠٠ م
- (٢) العصر السابق للإسلام (أى من ٥٠٠ م — ٦٢٢ م)
- (٣) العصر الاسلامى ويبدأ من هجرة الرسول من مكة إلى المدينة أى من سنة ٦٢٢ حتى الوقت الحاضر

أما عن العصر الأول الذى يتعلق بتاريخ اليمن أو بلاد العرب الجنوبية فليس لدينا مراجع عربية معاصرة له سوى النقوش ؛ كما أن المورد القيم الذى تمدنا به هذه النقوش على نفسه هو الأحاديث الواردة فى قصائد الجاهلية والقرآن وخاصة فى الأدب الممدى المتأخر ؛ ولا سراة فى أن معظم هذه الأخبار أساطير ، ومن الأجدر أن يتجاهلها الباحث المشتغل بالبحث التاريخى ، ولكنى سأخصص جزءاً وافياً لدراستها ، خاصة وأن عرضى الأول هو التعريف بمعتقدات العرب أنفسهم وآرائهم

أما العصر الثانى فيسميه المسلمون عصر الجاهلية أو عهد البربرية^(١) وتنطبع بميزات هذه الفترة فى دقة وأمانة فيما وصلنا من أغاني وقصائد الشعراء الوثنيين ، إذ لم يكن هناك إبان هذا الوقت أدب ترقى فكان من مهمة الشاعر التفتى بتاريخ قومه والافتخار بنسبهم ، وتمجيد استعالمهم للسلاح ، وتبجيل فضائلهم ، ورغم ما من أن مقداراً عظيماً من شعر الجاهلية قد فقد إلى الأبد ، إلا أنه

== فانه يحتوى على روايات وقصص عن حياة الأمم الوثنية البائدة فى الشام والى العراق والبلاد الفارسية ... وكان العالم كاترمير يعتقد أن كونامى المذكور فى كتاب الفلاحة النبطية من رجال القرن السادس ق. م . وقد عارضه نولسون Chwolson فى ذلك إذ بدا له أن كونامى عاش فى القرن الرابع عشر ق. م أما المؤرخ أرنست رينان فيميل إلى أن معلومات ابن وحشية عن حضارة الأصنام الآرامية ترجع إلى القرون الأولى بعد الميلاد لذلك يؤثر أن يكون كونامى ممن عاشوا فى ذلك الزمن أيضاً « (راجع موسى بن ميسون ص ١١٢ هامش رقم ١ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سبتمبر ١٩٣٦) (١) فى الحقيقة أن الجاهلية تشمل كل الفترة منذ آدم إلى محمد ، ولكنها قد تشمل — فى دائرة محدودة كما هو الحال هنا — للإشارة إلى عصر ما قبل الإسلام للأدب العربى

بلاد العرب وسورية ومصر وبعض الأقطار الناطقة بالضاد ، ولو أنها ظلت فى هذه الأمصار لفة الأعمال والأدب والتعليم . ونسمع اليوم من مصدر ثقة « أنها آخذة فى النهوض ، وأنها على وشك أن تسترد ثانية مكانتها الأدبية العظيمة^(١) » وهى إذا كانت تشغل — بالنسبة إلى هؤلاء المسلمين من غير العرب — نفس المكانة التى تشغلها اللاتينية والاعريقية فى الثقافة الأوربية الحديثة ، فينبى ألا ينزب عن ذهننا أن القرآن (وهو أروع آثارها) يحفظه كل مسلم لأول ذهابه إلى المدرسة ، وهو يتلوه فى صلواته اليومية ، ويسيطر على مجرى حياته كلها إلى درجة يكاد لا يصدقها المسيحي المادى

وأمل أن يغفر لى القارى تجاهلى — فى كتاب كهذا — ما يتعلق بالتاريخ العربى القديم الذى يمكن اللامام به من الآثار الأثرية والبالية ، كما أن أى كتابة يحاول من ورائها دراسة العرب من سنة ٢٥٠٠ ق. م حتى بداية العصر المسيحى لأشبهه بخريطة Cathay رسمتها يد سيرجون ماندفيل ؛ بيد أن شعباً (غير سبأ أو حير) من بين شعوب الجزيرة استطاع أن يترك أثراً أبى من غيره ، ذلك هو شعب النبط الذين سكنوا المدن واحترفوا التجارة قبل ميلاد المسيح بزمن طويل ، وأسسوا مملكة «بئرا» التى كانت رعية متقدمة فى الزراعة حتى كالت عام ١٠٥ م حين ضربها ودمرها تراچان ، وكان هؤلاء الأنباط يتكلمون العربية بالرغم من أنه قد ورد خطأ فى أحد نقوشهم أنهم كانوا يستعملون الآرامية فى الكتابة^(٢) ؛ ويخاط المؤلفون المسلمون بينهم وبين الآراميين إلا أن الدراسة العميقة لنقوشهم أثبتت خطأ هذه الفكرة التى أقرها كاترمير^(٣) ، وإن كتاب « الفلاحة النبطية^(٤) » الذى ألفه عام ٩٠٤ م الكاتب المسلم ابن وحشية

(١) من مقال للأستاذ مرجليوث فى J. R. A. S. لنة ١٩٠٥ ص ٤١٨

(٢) Nöldeke: Die Semitischen Sprachen, p. 36 399 and. 51

(٣) راجع ما كتبه « Quatremère » فى « الجريدة الآسيوية »

شهر مارس سنة ١٨٣٥ وما يليها

(٤) يقول الأستاذ إسرائيل ولنسون بصدد هذا الكتاب « ألفه سنة ٢٩٦ هـ باللغة العربية أبو بكر أحمد بن على بن وحشية الذى كان من أسرة نبطية وثنية اعتنقت الإسلام وحسن إسلامها ونبع بعض أفرادها . والكتاب خلاصة لنظريات المعتقدات الوثنية عند النبط والآراميين وما فيه مستمد من آراء عالم وثنى عرف عند ابن وحشية باسم كونامى ؛ ومع أن كتاب الفلاحة النبطية يشتمل على معلومات ونظريات فى علم الفلاحة والنبات ==

وكان أثر الدين فيهم ضئيلاً ، ولكن ظهر منهم بعض حكام أكفاء مهرة ، جديرين بأن يكونوا قادة جنس أمرهم . وقد بانفت الفتوح الاسلامية أقصى اتساعها عام ٧٣٢ م ، وكان للخليفة القائم في دمشق قواده فيما وراء أكروس والبرانس وعلى شواطئ بحر قزوين ووادي النيل ؛ وفي غضون ذلك كان بأس الدولة أخذاً في التدهور والأخطار من جراء المنازعات السياسية والدينية القائمة فيها ؛ أما الشيعة الذين تمسكوا بمحصر الخلافة في علي وأبناؤه بأمر مقدس ، فقد تاروا مراراً عدة ، وانضم اليهم المسلمون الفرس الذين كانوا يعشقون الدرب والحكومة الأموية الظالمة ، كما كان البساسيون - وهم ذوو وشيعة قرين قوية بالرسول - قادة الاضطراب الذي انتهى بفتح البيت الحرام نهائياً واستئصال شأفته

٥ - الدولة العباسية (٧٥٠ - ١٢٥٨)

كان العرب حتى ذلك الوقت أصحاب السلطان في المجتمع الاسلامي ، وقد شتموا بأنهم تبها على المسلمين من غير العرب وازدروهم ، ولكن انكسرت الآية بعد ذلك ، إذ نجد أنفسنا قد انتقلنا من عصر المصيبة العريية الى عصر النفوذ الفارسي والثقافة الجامعة ، وكان صفوة القوات العباسية من فرس خراسان ، وشاد العباسيون «بنداد» عاصمتهم الزهراء على أرض فارسية ، ونال أشرف الفرس أسمى مناصب الدولة وأرغمها في بلاط بني العباس ، وإن لم تكن الدولة الجديدة دينية ، إلا أنها كانت على الأقل حدية على الدين مجتهدة في أن تحيط نفسها بمظاهر الورع ، ونسى العرب والفرس حيناً ما بينهم من خلاف وفروق ، وتعاونوا جميعاً كما ينبغي على المسلمين الأتقياء ، واتقوا التعليم تشجيعاً عظيماً ، وكان هذا العصر العصر الذهبي للإسلام ، وقد بلغ أوجه أيام هرون الرشيد الزاهرة (٧٨٦ - ٨٠٩) . ولما ماتت تداعت عمدة السلام مرة ثانية ، وابتدأ نجم الأباطورية القوية البأس في المنيب ، وأخذت المقاطعات تنسلخ واحدة بعد أخرى عن الخلافة ، وتقتطع نفسها منها ، ومن ثم ظهرت دول مستقلة كثيرة ، بينها صار الخلفاء دُعي في أيدي الجند الأتراك ، وظلت معظم الأقطار الاسلامية مترفة بسيادتها اسماً ، ولكن منذ أواسط القرن التاسع لم يعد لهم إلا القليل منها ، أو لم يعد لهم شأن مطلقاً

نزهة محمد محمد مهدي

(تبع)

لا تزال لدينا بقية كبيرة (بإضافتها إلى ما وضعه علماء اللغة والآثار المسلمون من قصص تترى) تساعدنا على تصوير حياة هذه الأيام القابرة تصوراً دقيقاً

أما أهم العصور الثلاثة وآخرها فهو تاريخ العرب تحت ظل الاسلام ، وينقسم طبيعياً الأقسام التالية التي ألمت بها في هذا المكان حتى إذا أتى القارئ عليها نظرة تبين من خلالها مجمل المظاهر السياسية المتعددة لهذا العهد المضطرب الدقيق الذي يقوم تجاهه ؛ وهذه الأقسام هي :

١ - حياة محمد

حوالي مستهل القرن السابع المسيحي ظهر في مكة رجل من قريش هو محمد بن عبد الله بكتاب سماوي هو القرآن ، دعا قومه لنبيذ الأوثان ولعبادة «الله الواحد» ، وقد ظل مثابراً عدة أعوام على الدعوة لدين الاسلام في مكة على رغم ما لاقاه من سخرية القوم منه واضطهادهم لياه ، ولما وجد أن تقدم دعوته ضئيل هاجر عام ٦٢٢ م إلى بلدة مجاورة تلك هي المدينة ، ومنذ ذلك التاريخ كان النصر المؤزر حليفه ، وفي خلال السنوات العشر التالية دانت بلاد العرب جميعها لديناته ، ودعت بلسانها للإيمان الجديد

ب - مهوولة الراشدين (٦٣٢ - ٦٦١)

بعد أن قبض الرسول (ص) تعاور حكم المسلمين بالتتابع أربعة من أعظم صحابته ، هم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، وسعى كل منهم خليفة ، ويمرفون عادة بالخلفاء الراشدين ، وفي ظلهم وبارشادهم ثبتت دعائم الاسلام في شبه الجزيرة وخفق لواؤه بعيداً وراء الحدود ، أما أعداؤه من البدو فقد استقروا كستعمرين حريين في السهول الخصبة من سورية وفارس ، وسرعان ما وقعت الأباطورية الحديثة النشأة في حرب أهلية ، وكان مقتل عثمان إيذاناً باشتعال النضال بين طلاب الخلافة التنافسين ، وتمسك على - صهر الرسول - بلقبه ، ولكن حاكم سورية القوي معاوية بن أبي سفيان أنكر خلافته ونافسه

ج - الدولة الأموية (٦٦١ - ٧٥٠)

لماسقط على صربياً بضرية خنجر اعنلى معاوية عرش الخلافة التي ظل وفقاً على أسرته تمسكاً تاماً ، وكان الفارق الوحيد في الأمويين أنهم كانوا عرباً قبل أن يكونوا مسلمين ،